المشرق

الاشجار والغابات في سورية

للشاب الاديب الفاضل سليم افندي اصفر

ضرب الحرُّ فينا اطنابهُ وتلظَّت معامعهُ فذكرنا ذلك في عذوبة الاثمار وظلال الاشجار وحدانا الامر على تأليف مقالة في الاشجار والغابات

١

اذا ما أعملنا رائد الفكر وتعفَّحنا بطون التواريخ وجدنا انَّ بلادنا في سالف الاجيال حظيتْ بنصيب حسن من انواع الشجر ولستُ ارضى بدليل آخر غير ما ورد في الفصل التاسع من سفر القضاة حيث وصف الكتاب العزيز على صورة المثل اجتماع الشجر ليسحنَ عليهنَّ ملكًا وقد ذكر في جملة الاشجار المترشحة للملك في بلادنا الزيتونة والتينة والجفنة اعني أخصَّ الاشجار التي هي الى يومنا هذا من اسباب ثروتنا

(الكرم) فلنبدأ كلامنا بالجفنة فانَّها منذ غرسها اوَّل مرَّة ابونا نوح في جوار هذه البلاد لم تزل حراثة الكرمة في سوريَّة معزَّزةً تأتي للاهلين بالارباح الوافرة

لكنَّ فلاحة الكرم قد اصابت منذ نحو خمسين سنةً ترقيًا عظيمًا ولولا الآفات التي توالت على الدوالي لأتت كلُّ جفنة بضعفي حملها السابق بل بثلاثة اضعاف. وكنَّا نودّ لو يسعى كرَّامو بلادنا باتخاذ وسائل عديدة وآلات جديدة من شأنها أن تخفِّف اتعابهم وتوفِّر دخولهم وتحسّن خمورهم التي احرزت منذ القدم سبقًا بجودتها وطيب طعمها حتى اشاد بها الشعراء الاقدمون وذكرها الانبياء. وليس كلامنا هذا محض تخمين او حَدس بل امرٌ واقعيٌ تحقَّق بالتجربة في سهول البقاع وبعض انحاء لبنان فكانت نتيجة هذه الاختبارات انَّ الاجانب صاروا يقبلون على الخمور السوريَّة إقبالهم على أجود رحيق ايطالية والاندلس

بيد انَّ للكرمة اعداء لا بُدَّ من مقاومة هجماتهم من ذلك علَّة التزميد المعروفة بالاويديوم (Oidium) . وهي علة سهل علاجها . ودواؤها ان يذرّ عليها شيء من الكبريت او تُبخَّر بابخرته

ومنها ايضًا داء الفيلوكسيرة الذي سرى ظافرًا في كلّ انحاء اوربَّة وأتلف فيها كرومًا لا تحصى ثمَّ تعدَّى الى افريقية وزحف على آسية لم يُبقِ ولم يذر . وكان ظهوره في بلادنا نحو سنة ١٨٨٥ ولم يزل في نموّ وانتشار حتى انذرتنا الجرائد باقتحامه على ازمير سنة ١٨٩٥ . وهو اليوم قد اصبح يتهدَّد كرومنا اللبنانيَّة لأنَّ آثاره السيئة ظهرت في غرَّة هذه السنة في كروم حيفا . وقد رصدنا هذا الداء في مقالة نشرناها سابقًا في المشرق (١ : ٢٩٥ , ٣٤٣) وبيَّنا اعراضها ودللنا على طرائق علاجها فلا حاجة الى تكرير الكلام عنها

(الزيتون) وقد ذكر الكتاب الكريم مع الجنة الزيتونة وهي في سواحل بلادنا ومنعطف جبالنا شجرة مباركة تكسو الارض بهجةً وتأتي الاهلين جداء طائلًا من ثمرها المُصيِّر وزيتها الطيِّب . وممَّا نتمنَّاه ان يُزاد في عدد أغراسها وان تُنصب في بلادنا فسائل من اصناف مختلفة شائعة في بلاد ما بين النهرين وجبات ازمير يبلغ ثمرها كبر الجوزة

امَّا (التين) الذي ذكر الكتاب ثمرته الطيِّبة فلنا ان نضيفهُ الى اشجار كثيرة يعمُّ نفعها بلادنا كالأترج والنارنج والتفَّاح والسفرجل والاجاص والخوخ والمشمش واللوز والفستق الى غير ذلك من الاشجار المثمرة التي يلذُّنا طعمها ويبهجنا منظرها . ولا بأس ان خصَّصنا الجوز بالذكر لكثرة فوائده فانَّ من ثمره يُستخرج الزيت ويتَّخذ الدبَّاغون من قشرته صبغًا . وتُتلى اوراقهُ ثمَّ يصبُّ الماء المغليّ على الحيل ليقيها الذباب في الصيف . ومن قشرته ايضًا تُصطنع انواع من المربَّيات ويُستخلص مشروب طيِّب الذوق نافع للمعدة

ومن الاشجار التي اجمع السوريون على فائدتها شجرة التوت فانَّهم يعتبرونها ايَّ اعتبار لما يترتَّب عليها من تربية دود القزّ . امَّا زمن دخولها في بلاد الشام فمجهول . وغاية ما نعلم عن تاريخ الحرير انَّ ذكرهُ ورد في تواريخ الصينيين قبل المسيح بثيف والفين سنة . وكان الصينيُّون يضنُّون بسرّهم على الاجانب ولا يسمحون بنقل بزر القزّ او انصاب شجر التوت الى بلاد غريبة . وقيل انَّ اوَّل من تمكَّن من تعدّي هذه السنَّة ملكة صينيَّة زُفَّت الى بعلها خارجًا عن تخوم الصين فاخفت في ضفائر شعرها شيئًا

من بزر التوت وبزر القزّ فشاع من ثمّ نسج الحرير في كلّ البلاد وذلك سنة ٤١٩ للمسيح

ومما لا شكّ فيه ان قدماء الفينيقيين كانوا يعرفون حقّ المعرفة الحرير ويصبغونهُ صبغًا احمر قانئًا ومنهُ الارجوان الفينيقي الطائر الشهرة في كلّ البلاد

لكن صناعة نسج الحرير قد اتّسع نطاقها في عصرنا هذا وشملت سوريّة عمومًا ولبنان خصوصًا فاصابت نجاحًا عظيمًا فانّ اهل بلادنا يجنون ما يناهز ٤,٠٠٠,٠٠٠ اقّة من الفالج (الشرانق) وذلك عبارة عن ١٥٠,٠٠٠ او ١٦٠,٠٠٠ علبة من البزر المتّخذ لتربية الدود

ولا غروّ ان المدخولات يمكنها ان تزيد عن ذلك زيادة عظيمة لو راعينا بعض الشروط التي من شأنها ان تحسّن حالة البزر وتقوّي بنية الدودة. وهذه الشروط قد توخّينا بسطها وبيّنا فوائدها في مقالة افردناها لهذا الامر الخطير نُشرت في هذه المجلة (المشرق ٢ : ٣٢٠) فعليك بها. ونكتفي هنا بان نذكر للقرّاء انّ للدود كما للانسان تنفُّسًا فتحلّل الهواء عند نشقه وتستخلص منهُ الاكسيجين ثم تزفر كالانسان ويتوفّر بزفيرها الحامض الكربونيك ولا بُدّ من ازالة اضرار هذا الحامض وذلك بتنقية الهواء

وزد على ذلك انّ الدودة ترشحُ فيخرج من مسامّ جسمها كمّيّة من البخار الذي تفسد الهواء. قيل انّ ٣٠,٠٠٠ دودة ترشح في النهار بنحو ٢٧٣ كيلوغراماً من الماء. وذلك لعمري شيء لا يكاد ان يصدَّق لولا انّهُ تحقّق بالاختبار

ومن ادواء دود القزّ العلّة المعروفة بالمسكردين او القرن الاحمر وصفناها في المشرق (١ : ٩٧٤) مع طريقة شفائها فليراجع. ونوصي المربّين للدود ان يُحكموا طريقة قطع التوت ولا يجعلوا الشجرة كجذر قُطعت كلّ اطرافهِ فصار كأنّهُ شلوٌ بلا اعضاء وذلك ممّا يفسد الشجرة ويمنعها ان تأتي بجمل مضاعف

٢

هذا وانّ الاشجار المثمرة وأشجار التوت لا تنبت في كلّ الانحاء وفي سوريّة ولبنان امكنة عديدة لا تصلح تربتها الّا لشجر الغابات وليس ذلك خسارةً للزراعة بل وراء الامر منافع جمّة كما سترى

١ والفائدة الاولى التي لا تخفى على كلّ ذي عيان انّ الغابات من شأنها ان ترطّب الهواء وتلطّف لظى القيظ . وذلك لانّ التربة التي فيها غُرست الغابات اندى ممّا سواها فتُندي الهواء الذي يلاصقها وتبرّده . ثمّ انّ لاوراق الشجر تبخّرًا يصفّي الجوّ ممّا فيه من الحامض الكربونيك ويلطّف حرارته معًا . وفي جذور الشجر واغصانه حاجز لبعض الرياح الشديدة التي تفجأ البلاد وتأتيها حينًا بهبوات الحرّ اللافح وحينًا بنفحات البرد القارس فتقوم الغابات امام هذه الرياح وتكسر صدماتها

٢ والفائدة الثانية من غرس الغابات انها تحفظ تُربة الاراضي المرتفعة وتصدّ السيول الجارفة عن كسح التربة الجيّدة والحطّ بها الى الوديان وكذا تفعل في وجه الرياح السافية . ألا ترى كيف اضحت بعض قمم لبنان كالقرعة الصلعاء لا تجد فيها غير الصخور التي تتقشّر ترابها المغذي لنباتها . وانّ ذلك الّا نتيجة قطع الغابات

٣ ومن خواصّ الغابات انّها تتشرّب مياه الامطار فتنفذ في بطن الارض وتسيل سيلًا منظّمًا وتكثر بذلك العيون والينابيع وتخصب التربة . ولنا على ذلك دلائل حسّيّة فان العيون تبجّست في عدّة اماكن بعد ان غُرست فيها الاشجار . وبعكس ذلك ترى في لبنان آثار جسور رومانيّة حيث لا يسيل الماء في عهدنا حتى في فصل الربيع

٤ ومن منافع الغابات انّها تمنع طغوّ مياه الانهار في الوديان وذلك لانّها توخّر ذوبان الثلوج فلا يسيل ماؤها الّا بتدريج ونظام ولا تتعدّى مياهُ الانهار حدودها ولا تستقع في السهول بطغيانها ومن ذلك تتولّد الامراض والحمّيات وتتوفّر الجراثيم الوخمة . هذه الاماكن الوبئة والمستنقعات ليس افضل وسيلة لتنظيفها من غرس الاشجار لاسيما الاوكاليبتس الذي يصفّي الهواء وينشّف التربة

امّا الاشجار التي تصلح للغابات فكثيرة قد عرفها اجدادنا ووفّروا غرسها في مشارف لبنان . وافضلها الاشجار الراتينجيّة المخروطة الشكل كالصنوبر والسرو والسنديان فان لهذه الاشجار خشبًا يصلح للابنية ولكلّ اعمال النجارة ثمّ انّ الهواء الذي يهبّ فيها مُنعشٌ للقوى مقوٍّ للصدر يناسب المسلولين ايّ مناسبة ويشفي اكثرهم بلا دواء كما ترى في جبال سويسرة . وقد بيّن حضرة الاب لامنس في مقالتين له الاولى عن جبال الألب ولبنان (مشرق ١ : ٨٢٨) والثانية عن آثار الرومانيين في لبنان (٢ : ٤٤١) ما بذلهُ الرومان من المساعي المشكورة في غرس الاشجار في لبنان

لعلمهم انَّ الغابات من أعظم اسباب الثروة للبلاد الجبليَّة . وفي المقالتين المذكورتين فوائد جمَّة بهذا الخصوص نشير على القرَّاء بمراجعتهما

امَّا (أرز) لبنان فانَّهُ أشهر من ان يحتاج الى وصفنا فانَّ ذكرهُ قد طبَّق الآفاق وأجمعت الاسفار الالهيَّة والتواريخ المدنيَّة على ذكر صفاتهِ الفريدة . وفي مقالة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢٦) خلاصة بعض الشواهد المفيضة في مدح الارز فاكتفينا بالاشارة

هذا واننا نرى بغاية الاسف انَّ غابات الارز أضحت في بلادنا اثرًا من بعد عين . فان ما بقي منها في سفح جبل ظهر القضيب وبجوار نهر الباروك لا يكاد يُعبأ به لقلَّتهِ ولعلَّنا بعد سنين قريبة نأسف على هذه البقايا نفسها ان لم يتدارك أولو الامر هذا الخلل ويقسروا الاهلين على حفظها . ولكن ليس ذلك بكافٍ وانَّنا نتمنَّى لو نرى رؤوس لبنان جميعها مكلَّلةً بغابات الارز كما كانت في العصور الخالية او تُغرس بدلًا منها اشجار وارفة الظلّ متينة العود تقوم مقام الارز وتعيد لبلادنا رونقها القديم

لعلَّ قرَّاءنا الكرام سمعوا بما أُنشئ في اوربة واميركة من الجمعيات للدفاع عن الحيوانات والقيام بامرها في عِلَلِها وعَرَضِها . وذلك بلا ريب من غرائب المشروعات التي تدلّ على حنَّيَّة وشفقة كان الأولى بهم ان يصرفوهما في خدمة الانسان العاقل وسدّ حاجاتهِ . الَّا انَّ الاميركان لم يلبثوا ان باشروا بعمل آخر كان أجدى نفعًا لوطنهم فانشأوا جمعيَّات لتوسيع نطاق الغابات وغرس الاشجار ولا يُطلب من اعضاء هذه الجمعيَّات سوى غرس بضعة فسائل كلَّ سنة ولهم عيد يدعونهُ عيد الشجر (Arbor day) يذكرون فيهِ ما تيسَّر لهم من هذا القبيل . وممَّا ذُكر في رزناماتهم انَّهم غرسوا في خمس عشرة سنة نيفًا و ٣٥٥ مليونًا من الشجر . فهذه النتيجة العجيبة حملت الفرنسيين في بلاد الجزائر على اقتفاء آثار الاميركان فجاءت اختباراتهم طبقًا للمرغوب

فيا ليت احدًا من ذوي المروَّة والنفوذ يقوم بيننا وينشئ جمعيَّةً كهذه فلا يمرُّ على بلادنا خمسون سنةً حتى تُصبح كجنان الفردوس لا ينقصها شيء من اسباب الرفاهيَّة . حقَّق الله امانيَّنا هذه ولا اخاب آمالنا